سحابة صيف

للأستاذ أديب عباسي

يقول شوبنهور على طريقته في التشاؤم والتقطيب على وجه الحياة : إن معظم الروائيين يقفون رواياتهم عند عتبة الزواج لا يتعدونها ، كأن ما بقي من الحياة لا قيمة له ولا خطر في تقديرهم ، أو كأن ما يعلمون علم الخبرة واليقين من انتهاء أحلام الحب والسعادة قبل الزواج إلى توافه العيش وخمول الاعتياد بعده يجعلهم يقفون عند ذلك الحد من رواية الحب ، حتى لا يشوهوا الصورة التي دأبوا على تصويرها قوية ساحرة جهد طاقتهم .

وعلى صدق ما يقرر شوبنهور هنا وعلى عظم الفارق بين حياة الرؤى والأحلام قبل الزواج ، وحياة الجد والكلفة بعده ، فأننا مثبتون في هذه الأقصوصة صورة من حياة زوجين بعد عهد الزواج لا قبله . وليس هذا لأن الزوجين اللذين نرسم لهما هذه الصورة مثلا دور الحب الأول تمثيلا عاجزاً لا يستحق جهد الرسم ولا عناء التصوير ، إنما نهمله لأنه كان طبيعياً لم يثر شيئاً من فضول الاستغراب في الناس ، كما لم يثر عواطف الحسد ولا مزاحمة الطامحين التي تكون السبب الأول غالباً في تعقيد الصورة وإكسابها تشويق الطرافة وإثارة المفاجأة . فصادق كان بين طلاب الصفوف العليا في الجامعة مثال الشباب النبيل والرجولة القوية والمواهب النادرة : أخلاق وطباع تدنى الناس منه وتقربهم اليه ولكن في غير ابتذال ولا خفة ، وتبريز في الدروس ولكن في غير إجهاد ولا مشقة ، واكتمال في التكوين الجسمي ولكن في غير نعومة الأنوثة ولا طراوتها . ومن هنا فقد نفض جميع الشبان أيديهم (والأصح قلوبهم) من فريدة لما رأوها تنجذب انجذاباً قوياً في ناحية صادق ، وتدنو منه ثم تصير معه في دائرة محكمة من الحب الصحيح والمواهب النادرة والرجولة الكاملة ؛ وما كان يدور لأحد بخلد أن يتخطى هذا السور ، بله تحطيمه ، ليصل إلى حيث استقر قلب الفتاة ويزحزحه عن موضع ارتكازه

* * *

وانقضت سنو الدراسة وخرج صادق يمارس مهنة الطب بعد أن نال شهادته بامتياز وتفوق عظيمين . وخرجت فريدة أيضاً في العام نفسه لتمارس التعليم في إحدى مدارس الأناث العالية ؛ ولم يكن ذلك من حاجة مادية إلى التعليم وإنما استعداداً لعهد الأمومة الذي من أول واجباته معرفة الصغار معرفة اختبار لا معرفة كتب ومحاضرات

ومضى شطر من العام وصادق وفريدة يغتنمان كل فرصة للقاء ، يروحان على عواطفهما ، ويعدان العدة للمستقبل البعيد الذي ينتظرهما ، مستقبل الحياة الزوجية السعيدة والبنين الصالحين ؛ وانتهيا إلى مرحلة الاستعداد الأخيرة فأعلنا للمعارف والأصدقاء خطبتهما التي تلاها الزواج بعد أسبوع ، ولم يشذ

صادق وفريدة عن التقليد الحديث هنا ، فقد قام الأهل والأصدقاء يودعونهما في إحدى أمسيات الربيع المبكّر إلى السفينة التي أقلّتهما إلى أحد الأقطار المجاورة يقضيان شهر العسل كما هنا ما تقضي فترة من العمر

وعاد الزوجان عند نهاية الشهر ، هو لمتابعة عمله ، وهي للقيام بواجبات الزواج والبيت . ولا حاجة إلى القول بأن صادقاً كان إلى هذا الوقت قد اكتسب ثقة العائلات العديدة وأصبح مثابة المرضى وموضع الأمل في الشفاء والسلامة . وقد ساعده على ذلك العلم الوثيق والإحاطة الشاملة والمتابعة الشديدة لكل جديد في عالم الطب ، لعلمه أن الطبيب الذي يغفل مسايرة مستحدثات الطب يُضحي شيئاً عتيقاً في وقت قصير . هذا إلى الشخصية المحبّبة والأخلاق الموزونة والثقة بالنفس في غير اعتداد ، والفهم السريع والادراك الصحيح للأزمات النفسية التي تنتاب المرضى والمعتلّين ، إلى إشراق قوي في الوجه والنفس يبعث في النفوس أملاً قوياً في الشفاء ورغبة أكيدة في الحياة

أما فريدة فقد غدا همها توفير الراحة الفكرية والحسّية لصادق ، ليصفو ذهنه وينصرف إلى عمله الدقيق أخلى ما يكون بالاً ، وأهدأ ما يكون فكراً ، وأشد ما يكون انصرافاً عن توافه الضرورات المنزلية والحاجات البيتية المربكة . وكانت تقول : ألا يكفيه هذا العناء الموصول والجهد المضني والزيارات المفاجئة تستلّه من أحضاني أو من بين يدي ليلاً أو نهاراً . وتعرضه للفح الحر أو نفح القر ، إلى ما يرهق التصور ويرمض الاحساس من العيش الدائم بين آلام الناس وأحزانهم ، حيناً في غمرة الموت ووجوم الفناء ، وحيناً أمام أقسى الآلام وأشد الأوجاع وآلم الزفرات . ألا يكفيه كل هذا البلاء حتى أحمله أعباء البيت وأثقاله لأنصرف إلى الزينة والزيارات وقتل الوقت في ثرثرة المجالس وبطالة الاجتماع ؟ ! ... وفوق هذا ما فتئت فريدة تهيئ له كلما آب من عمله جوّاً روحياً من ذاتها ومما يحيط بها ، يبعث إلى نفسه الراح والروح ، وينفض عن شعوره وأعصابه ما علق بها من انقباض ، وخالطها من ارتماض . تلقاه متشوّفة مشرقة ، وتقضي الوقت بين يديه موقدة الحس مشبوبة العاطفة ، وتودعه لهيفة واجفة ، كأنه ذاهب في سفر بعيد أو لخطر أكيد . وهكذا مرت الأيام تترى وحياة هذين الزوجين مثال أعلى ومثل مضروب لهناء الزوجية في السر والاعلان . وقد زاد في هناء الزوجين ووثق بينهما النجاح الباهر الذي نجحه صادق حتى تخطت شهرته المحيط الضيق الذي يعمل فيه ، وغدا مثابة الزمنى والمرضى في مختلف القرى والمدن المحيطة

هذا وقد تعرف صادق بحكم عمله إلى أسر كثيرة ، وتوثقت عرى الألفة والصداقة بينه وبين عدد كبير منها ، فكثرت دعوات هذه الأسر له ولزوجته في المناسبات العديدة التي تقتضيها الحياة العصرية . وكانت فريدة أول الأمر جد مغتبطة لهذا الطور الجديد من حياتها ؛ وأقول جديد لأنها نشأت في أسرة محافظة ، ثم تسلمتها المدرسة بجدها وأوامرها ونواهيها العديدة ، ثم انتهت إلى التعليم وهو بضع من القيود ويفرض من الواجبات على المعلمة مالا يبقي لها معه مطمح ولا سبيل لهذه الحياة الاجتماعية الحافلة

إلا أنه ما عتم أن أخذت فريدة تضيق بهذه

الاجتماعات بعض الضيق ، وأخذ يرين عليها شيء من الانقباض والحرج كلما دعيت إلى اجتماع من هذه الاجتماعات ، بل لقد تطور الانقباض والحرج إلى مقت وكراهية شديدين . على أن فريدة كانت من قوة الإرادة ورهافة الحس والتحرز بحيث لم يندّ عن لسانها كلمة أو تبدر منها بادرة تشي بما أخذ يستقر فى نفسها من مرارة وكره لهذه الاجتماعات حتى لا تؤذى شعور الزوج وهى الحريصة جدّ الحرص على أن تبقي جو البيت الروحى والحسى جنة بفيء إليها من عناء المهنة وأوصاب العمل

وكانت هذه الحال تفضى إلى أوخم العواقب لو استسرت هذه العقدة النفسية فى نفس فريدة وانحدرت إلى معمل العقل الباطن ليحولها سماً زعافاً يسمم الروح ويتلف الأعصاب ، ولو كانت فريدة عادية الذكاء غير شديدة التفطن والفحص لكل بادرة من بوادر النفس وكل هاجسة من هواجس الشعور ، فلقد لاحظت هذا الطور الجديد من الشعور تنتهى إليه من غير إرادة ولا عزم منها ، ولاحظت كذلك أن نضارتها أخذت تجف ببطء ولكنه أكيد ، وأن الألق والبريق اللذين ينبعثان من عينيها انبعاثاً غريباً أخذ مكانهما كدرة واضحة واغبرار ، وأن تينك الوجنتين الورديتين أخذ لونهما ينضل ويحول ، وأن الشفتين المرجانيتين حل محلهما خطان أبيضان في حمرة خفيفة توشك أن تزول . وهالها ما رأت ، ووجمت تفكر وتحلل ؛ ولو كان لهجس الشعور صوت مسموع لسمعتها حينئذ تقول :

لم كل هذا ؟ ! إنى أشعر بسرور خفى ولكنه أكيد كلما مضى الأسبوع ولم تكن دعوات ولا اجتماعات ولا زيارات . أيمكن أنى مللت حقيقة مخالطة الناس ورضيت بالوحدة والانقطاع عما سواها؟ كلا ! كلا : والدليل أنى لا زلت أرتاح لزيارة صويحباتى وجاراتى ، وأنى مافتئت أزورهن وأستزيرهن وأجد الأنس والغبطة فى ذلك . إذاً ما هو وكيف أفسره ... ... ؟ ! يا الله ! أيمكن أن يكون ذلك هو السبب ؟ ! أكاد أعرف ! أكاد أكشف الحقيقة المرّة ... لقد شاهدتهنّ فى الحفلة الراقصة منذ أسبوعين يتسابقن للرقص معه . ورأيتهنّ يُمعنّه بعيون لا يخفى فيها الإعجاب إن لم يكن ما هو فوق الإعجاب ! ثم ألم تمتدح جميلة وسعاد ذوقه ولطفه فى أذنى ؟ وتلك الشقراء معورة العينين شهوانية اللحاظ كم أثنت على سمته وأناقته « التى لا ترتفع إلى حدود التماثل الهندسى والسمت البوذى كما نرى فى بعض المخانيث من عبّاد الزى والأناقة »

ووقفت فريدة عند هذا الحد من التساؤل والتظنى خشية أن يجرفها تيار الشعور إلى نقطة الخطر فى مجارى الشعور حيث تتركز الخواطر والهواجس وتحتشد فى نقطة واحدة لا تحول عنها ولا ترمم . وعادت تقول : وما شأنه هو إذا كان سمته أو ذوقه أو أناقته أو أى عنصر من عناصر شخصيته مثار الإعجاب ومبعث التقدير أو خلافهما فى نفوس الأوانس والسيدات ؟ أليس هو لى وحدى دون سواى ؟ أليس يعود فى المساء من عمله المرهق فيزول في لحظة كل ما ازدحم على جبينه من تقطيب الجد واكفهرار العمل ، ويودعنى فى الصباح وبوده ألا يودعنى ؟ ألم يقل لى منذ حين إنه لا يشعر بأنه يحيا على متن الحياة إلا فى البيت ، وأنه خارج البيت كأنما يحيا على هامش الحياة وحفاف الشعور ؟

هكذا حللت فريدة الموقف وعرفت أنها

وساوس الغيرة فى غير مبرّر ؛ أخذت تنهش وتعيث فى صدرها « ولكن أليس هذا كالذى يستلقى فى الفراش ويذهب يئنّ ويتوجع توجع المريض المدنف لا لشىء إلا لعلمه أن فى الهواء الذى يستنشقه جراثيم المرض وأسباب الإصابة ؟ ! »

ولكن المنطق شىء والعاطفة شىء آخر . فإن فريدة — بالرغم من تحليلها هذه العاطفة الطارئة تحليلاً صحيحاً ، وبالرغم من زوال الشىء الكثير من أسباب القلق وعدم الاطمئنان — ظلت تشعر بالراحة وانفراج الشعور كلما مضى اليوم أو الأسبوع دون أن يُدْعوا إلى اجتماع أو يُضطرا إلى إقامة اجتماع في منزلها . وتمنّت لو تزول هذه الاجتماعات زوالاً نسبياً أو مطلقاً فيزول معظم السبب فيما تخشى وتحاذر

ولاحظت فريدة كأن رغبتها فى هذا الشأن أستجيبت ، فقد رأت صادقاً يعتذر لأصدقائه عن كثير من هذه الاجتماعات بحجة العمل الكثير والزيارات الطبية المفاجئة ؛ وقل تبعاً لذلك دعوتهما الأصدقاء والمعارف إلى منزلها . وقد حملته فريدة أولا محمل الأمر العارض الذى لا يلبث أن يزول ، ولكنها لاحظت استمرارا من صادق على الأعراض عن معظم هذه الدعوات ، فأخذت تسائل نفسها : أيمكن أن يكون قد فطن إلى ما فى نفسى فاستجاب له استجابة الزوج الوفى الكريم ؟ وهل كثير على صادق أن ينفذ إلى علة قلقي وشجوني ، وهو الذى لا تخفى عليه خافية من أمرى ؟ الحق لولا أننى لا أحتفظ فى صدرى بصورة غير صورته لأرعدت كلما أطل فى عينى أو تفرس فى وجهى

وزادها يقيناً بأن صادقاً عرف خبيئة أمرها فأخذ يجاريها على ما فى نفسها أن رأته يهمل هندامه إهمالاً تكاد تبين فيه القصد ، وأن رأته يحلق ذقنه يوماً ويتركها يوماً آخر بدل الحلاقة اليومية التى اعتادها . وقد نبهته يوماً إلى ذلك فأجاب : إن الحلاقة كل صباح صيرت جلدة وجهى حساسة كل الحساسية ، فأنا أعمد إلى إطالة فترة الحلاقة لأريحها

وأخيراً زال كل شك من نفسها فيما انتهت إليه من أمر صادق حينما رأت شعر رأسه يتدلى وراء أذنيه بشكل ظاهر ، فاغرورقت عيناها ، ودلفت إليه وجلست حذاءه ، كف تمرّ على سحنته ، وأخرى تعبث بشعر رأسه ، وخاطبته بصوت فيه الألم والسرور :

وأخيراً ياصادق ، ألا تنوى أن تدعو الحلاق ليسوّى هذا الشعر الذى أخذ يتدلى وراء أذنيك بشكل ظاهر ؟ هل أدركك ذهول الفلاسفة أو اعتقادهم أنه ليس ثمّة فكر عميق بدون لحية كثّة وشعر متهدل طويل ؟ هذه اللحية الشائكة تكاد تترك خدوشاً فى وجهي كلما أمررت سحنتى على سحنتك

— أما لحيتى فقد فسرت لك لماذا أحلقها يوماً وأتركها آخر . وأما شعر رأسى فأوثر أن أتخطى الزمن الذى كنت أعيّنه للحلاقة لأنجو بعض النجاة من أخطار الحلاقين وما يعرّضون المرء له من أسباب العدوى والإصابة . وقد فاتنى أن أذكر لك أنه جاءني فى الأسبوع الفائت شاب يطفح على وجهه مرض خبيث ، وبعد البحث علمت أن حلاقه أنحفه بهذا المرض بموساه أو يده القذرة . ألا قبّح الله الحلاقين ! إنهم وسيلة أكيدة لنقل الأمراض !

— اسمع ياصادق : غداً عيد ميلادك وسوف يكون عندنا صنوف من الناس ، ولن أطيق أن أراك

بهذه الدقن أو هذا الرأس ، فإما أن تقوم تدعو الحلاق الآن أو ...

— أو ماذا ؟

— أو أنني آتي بالمقص والمشط ، أنا

— بالله أسرعي يا فريدة ! إنه لتدبير والله ! سوف نوفر الفروش التي ندفعها لذلك الثرثار . وفوق ما توفرين من دراهمي سوف أكون آمناً على نفسي بين يديك . وفرق بين أن يمر ذلك الحلاق القذر يديه على وجهي وعنقي ، وبين أن تمرّي هاتين اليدين النظيفتين على رأسي ووجهي .. لماذا تتلكئين؟ هل آتي بالمقص والمشط أنا ؟

لا تتجاهل يا صادق ! فأنت أدقّ حسّاً وأوعى شعوراً من أن يجوز عليك طور من أطوارى . هيا نسدل ستاراً على هذه الهزلة التي أوشكتُ بحماقتي أن أصيرها مأساة

وطوقته فريدة بذراعيها وانهالت تقبله وتقبله حيثما وقع فمها من وجهه ورأسه ، والدموع تسفح على وجنتيها ، والكلمات تقطعها أنفاسها المتهدّجة وصدرها الذى أخذ يعلو ويهبط بسرعة وشدة

ولم يستطع صادق عند هذه الثورة النفسية إلاّ أن يستجيب لها ويرد لفريدة قبلة بقبلة ، وهو فى خلال ذلك يناديها ، مالك ؟ ! أجننت ؟ لاشك قد جننت ! لقد خنقتني وكتمت أنفاسي ! خلّي عني ! أنني وحده لا يكفي للتنفس !

وتجيبه : نعم جننت ؛ وأيّة امرأة لا تجنّ إذ يكون لها مثلك ؟ ! لقد جزت الامتحان يا صادق . لقد جزته . اغتفر لى غيرتى الحمقاء التى صدّتك عن محافل الأنس ، وألبستك ما لا يتلاءم وذوقك وكادت تبدّلك فيلسوفاً بلحية مرخاة وشعر مرسل

— أوه ! أغتفر ماذا يا فريدة ؟ أغتفر لك أن شحب لونك ، وزالت نضارتك ، وشح نومك وأوشكت أن تذوى ذوى الزهرة فى مهب الريح اللافحة لما خيل إليك أنني صائر إلى غيرك ؟ ! ثم أية متعة من متعى لا أتخلى عنها فى سبيل أن تعود إليك نضارتك ويثوب إليك بشرك واستقرارك ، كما لاحظتها تعود بعد زوالٍ مذ قلت استجابتنا للدعوات والاجتماعات

* * *

ومن ذلك الحين عادت الزيارات إلى الاتصال ، وعادت ألبسة صادق إلى أناقتها وانسجامها ، وعادت فريدة لا يقلقها أن تسمع الثناء والإعجاب بصادق يصبان فى أذنيها ؛ فلقد وثقت بأنه لها وحدها دون سواها ، بل لقد أصبح الاعجاب بصادق فى أية ناحية من نواحى شخصيته يسرها ويطربها . ذلك أنها وثقت بأن صادقاً جزء منها ومكمل لها حقاً ؛ وإذن فالثناء عليه والاعجاب به لها فيهما حصة

أديب عباسى

رفائيـــــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقـــلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر
ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً